واغمات اليوم انما هي قرية فقيرة فيها بعض مساكن الرعاة والفلاحين وهناك خارج القرية في سفح ذلك الجبل العظيم حوش متهدم في وسطه كدية من الاحجار قالوا هي قبر المعتمد واخرى بجانبها قالوا هي قبر الروميكية زوجه.

ولعل الاخوين طارو الكاتبين الافرنسيين يصدقان عند قولهما : « ان قبر المعتمد هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الاشجار المخضرّة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء الذي لا يوصف ويبعث في النفس لذة ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقته ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي . »

عجباً لقساوة الزمان في معاملة هذا الملك الشاعر ! فمن يصدق ان المعتمد مات ودفنوا جنازته على انها جنازة غريب .

وأي رثاء يرثى به احسن من هذه الابيات التي تركها لتكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي
حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت
بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا
بالموت احمر بالضرغامة العادي
نعم هو الحق وافاني به القدر
من السماء فوافاني لميعادي
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه
ان الجبال تهادى فوق اعوادي
كفاك فارفق بما استودعت من كرم
رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي اخاه الذي غيبت وابله
تحت الصفيح بدمع رائح غادي
حتى يجودك دمع الطل منهمر
من اعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة
على دفينك لا تحصى بتعداد

فمتى تقيم مراكش موسم المعتمد ؟ ومتى ترضيه ميتاً بعد ما اغضبته حيا ؟ ومتى نلبي ارادته ؟ أ. ب.

المنصور الذهبي

للمؤرخ المحقق سيدي محمد بن عثمان الاستاذ بالكليه اليوسفية

إنه لمن دواعي السرور والاغتباط أن تتاح الفرصة لاحياء ذكرى المائة التاسعة لعاصمة العلم والفخار مراكش الحمراء ، وأن تكون تلك الذكرى الخالدة من ابتكارات «مجلة المغرب» التي نشكرها على هذه الذكرى السعيدة التي سمحت لي بالمشاركة في احياء بعض تراثها حسب ما تسمح به الظروف وتقضي به الحاجة .

ويزداد اغتباطي بتخصيص الكتابة في عظيم من الافراد الذين أنجبتهم الحمراء ورفعت في سماء المجد مكانتهم فكونت منهم ذالك العلم المفرد الذي منحته التأييد فبدا منصوراً في أعماله موفقاً في آرائه .

ذلكم الرجل الفذ والعلم الشامخ هو أبو العباس أحمد ابن الشريف محمد الشيخ الشريف السعدي الملقب بالذهبي الذي كان تاجاً ذهبياً على هامة الدهر ومثالاً فخماً للامارة الاسلامية في المغرب الاقصى تلكم الشخصية المجيدة وذلكم

العبقري العظيم هو الذي احبر في حياته هذه العجالة لان الاطناب في الاشادة بما حفلت به حياته وما امتازت به شخصيته في مختلف النواحي مما لايعد ميسوراً في كلمة مختصرة كهذه .

على أنني لا أترك كلمتي هذه خالية من دراسة بعض النواحي المنصورية التي تعد بحق غرة في جبين الدهر مما يستحق الافراد بالتأليف كنشأته وثقافته وادارته وفتحه وبراعته الفنية في انشاء العمائر وابتكار الفنون الجميلة ومكانته الادبية مما يمكن ايجازه من تلك الحياة المفعمة بجلائل الاعمال ومهمات الامور .

نشأته : نشأ المنصور من أبوين كريمين من الاسرة المالكة لعرش المغرب الاقصى في المائة العاشرة للتاريخ الهجري، وكان ملحوظاً بعين الرعاية والاعتبار من لدن أبويه العظيمين الذين تناولته رعايتهما بالتهذيب حتى كونا منه ذلك الرمز الكامل للمثل العليا ، كان أبوه محمد الشيخ صاحب عرش المملكة المراكشية والقابض على زمام أمرها في عزة وسلطان ، وكانت أمه الجليلة السيدة مسعودة صاحبة اريكة العز والفخار في الحضرة العلية حيث تبوأت مكانة سامية في قلوب المراكشيين بما قدمته لهم من معروف واحسان وما شيدته من مؤسسات خيرية كبرى يعد من أفخرها مسجدها الكبير الذي شيدت مبانيه في أطراف عاصمة ملكها الحمراء وخصصت له من الاوقاف الخيرية الكبيرة ما يشهد لتلك المحسنة الجليلة بعظمة برها واحسانها مما يستوجب لها بحق أن تدعى - بام المحسنين - في عصرها الزاهر بما أسدته لشعبها الشكور من احسان .

فلا غرو اذا غذي المنصور من تلك الروح الطاهرة وتلك المبادئ الانسانية بانواع المحاسن وضروب الكمال ، مما يبين للناس أن ما سطر في تاريخ المنصور من العظمة ورثه عن الاباء ليخلده ذكرى الاحفاد وقبساً منيراً للاجيال، فلئن كان عظيماً في قومه فقد كان عظيماً أباً وأماً من ارومة عدنانية امتزجت أغصانها بتلك الاريحية القرشية فكونت المنصور مكيناً في قومه قويا في ارادته وثاباً في عزماته زهياً في أيامه الزاهرة التي بسمت له في عصر كان جوه عابساً تهدده اخطار الطامعين من كل حدب وصوب .

ولد المنصور في العاصمة الادريسية سنة ٩٥٦ وشب في عفاف ورزانة تملأ قلبه عظمة اليقين بايام هنية تفتر له عن حياة ملئت جوانبها بعظائم الامور .

يظهر طفلاً في رزانة الكهول ميالا للتعاظم بطبعه منذ فطرته الاولى تتجلى في صفاته أخلاق الملوك منذ نعومة اظفاره ، يتيه في ريعان الشباب بخيلاء العزة وشمم الهمة ، تحوطه رعاية الملك وترمقه عين الخلافة مذ كان يافعاً إلى أن تبوأ أريكة عرش المملكة المغربية فهو مكين في قومه عظيم في نشأته متواضع في خلافته صائب في نظراته لا تغره زخرفة القول ولا يركن لمبالغة المتسجدين يزن الرجال باعمالها ويقدر العاملين بآثارهم ، تلك كانت اوصافه الاخلاقية في خلافته وشبابه وذلك ما أطنب في الاشادة بذكره الباحثون في حياته وإن كان المؤرخون لم يهملوا صفته الخلقية من سعة المنكبين وامتلاء الخدين و و..... مما يستطيع معه الرسام بريشته او المثال الفني بنحته أن يخلق له صورة تتفق ملامحها مع تلك الصورة الحقيقية حسب ما رقم في وصفه الكاتبون .

ثقافته : كان أبوه يتعهده في جميع أطواره الانشائية ليجعل منه ذلك العبقري الذي تهتدي بآرائه الصائبة أرجاء المغرب الاقصى وينشئه كما شاءت همة الملوك ان تكون اشبالهم الابية ، لذلك خصص له مربي أولاد الملوك الاستاذ أبا عبدالله محمد بن يوسف الدرعي المراكشي

ليتولى تربيته على وفق ما تقتضيه التقاليد المغربية ، فكان أول ما بدأ به حياته العلمية حفظ كتاب الله العظيم وذلك أعظم ما يقدمه ملك موفق لنجل يراد منه التوفيق ، شرع في حفظ كتاب الله وشاءت الاقدار الالهية أن يتمم تلك المهمة العظيمة من حفظ القرآن واستظهاره وتجويده على يد استاذه ابي عبد الله ، وقديماً كان حفظ القرآن سنة امراء المغرب الاقصى حتى في هذا العصر الزاهر عصر العلم والمدنية .

فلئن كان المنصور قد حفظ القرآن في رعاية ابيه في المائة العاشرة فولي عهد المملكة المغربية المحبوب أمير الاطلس مولانا الحسن قد احتفل جلالة والده المعظم في هذا العهد بشروع شبله العزيز في حفظ القرآن في عصر العلم والمدنية ولعمري ان ذلك مظهر رائع من المظاهر الكريمة التي تضم صفحة ذهبية اخرى الى الصحف العظيمة التي خلدها التاريخ لجلالة ملكنا المعظم أيده الله وخلد ملكه وأقر بامير الاطلس عينه ، وحفظ القرآن لاولاد الملوك عادة شرقية شريفة المبدإ سامية الغاية يرجى من ورائها توحيد الثقافة بين الامراء وافراد الشعوب ورضي الله عن القائل[1] : « لقد آن أن يفهم الغافلون أن الامة التي يحفظ أطفالها القرآن هي أهدى من أمثال الامة التي يحفظ اطفالها اقاصيص لافونتين » مرحى لها كلمة صادفت الاستحسان من وراء البحار .

تلك كانت نشأة المنصور وذلك كان مبدأ حياته العلمية ثم شرع يقتطف من المعارف ما تطمح له همم الملوك العلية فوجه عنايته الخاصة للمبادئ العربية التي تعتبر كسلم يرتقي به التفكير إلى فهم كلام العرب وما حبره الشيوخ وجمعه المؤلفون من معارف فاتخذ لذلك الاستاذ ابا العباس القدومي وبعد أن برع في النحو أتبعه باصول الدين على أبي العباس المنجور والفقه على أبي الربيع سليمان وقرأ الرسالة على الاستاذ ابي عمران موسى المراكشي الروداني وتاقت نفسه الى العلوم الرياضية — ولا أقصد الرياضة في الاسلام وإنما أقصد الرياضة حسب الاصطلاح المحفوظ — فأخذ الحساب على أبي محمد عبد العزيز المراكشي وبرع فيه وفي الهندسة وألم ببقية العلوم الرياضية وسمع علوم البلاغة والعروض وكافية ابن الحاجب والشمسية في المنطق وقرأ الاصول ثم أخذ الكتب الستة على الشيخ رضوان بن عبد الله والشيخ ابي عبد الله محمد بن علي ، وأخذ التفسير والحديث والكلام على شقرون بن هيبة الله الوهراني وأخذ عن غير اولائك الشيوخ كالحميدي شيخ معهد فاس حتى جمع في ثقافته العلوم التي تروج اذ ذاك بالمدرسة المغربية وأحسن الاساليب التعلمية التى كان يتبعها الشيوخ وقتئذ في اذكاء ملكة الفنون العلمية وقد بلغ النهاية في سائر العلوم بنباهة فائقة وفهم ثاقب وقد استعمل ذكاءه الوقاد في ايضاح مشاكل كتاب اقليدس في الهندسة وكان مما يستصعبه الشيوخ بما اوتيه من ذكاء وفطنة .

وقد رأى كثرة الشيوخ وعلو الاسناد وأخذ الاجازات وتتبع الفهارس والاستيناس بكل ماله علاقة بفنون الحديث وعلوم التفسير مما تستوجبه التقاليد المرعية حيث أن المدرسة القديمة تباهي بذلك وترى في الاجازة اعترافاً من موقعها بمكانة المستجيز من الوجهة العلمية كشهادة يقدمها الشيخ لتلميذه بصحة مروياته لذلك بعث المنصور يستجيز علماء مصر القاهرة ليتصل سنده بسند الكنانة حرسها الله وتتقوى مروياته بروح المشارقة التي تشد عضده العلمي وبكل رعاية أجازه الاستاذ ابو عبد الله محمد بن يحي القرافي اجازة عامة بسط القول فيها وكذلك أجازه الاستاذ أبو عبد الله محمد البكري المصري إجازة تتفق مع مكانة

(١) القائل هو الاستاذ زكي مبارك في مقدمة المدائح النبوية ص ١٣ .

المنصور وقد حلى صاحب الاستقصاء تاريخه بفقرات منها ص ٥٥ ج ٣ ، وقد كان المنصور مولعاً بالكتب الادبية ودراستها دراسة خاصة وقد برع في تلك الفنون براعة تامة وعني بالتأليف عناية خاصة وله تقاييد مفيدة على التفسير وكتاب في السياسة وغير ذلك وقد نشطت حركة التاليف في عصره نشاطاً كبيراً امتثالا لاوامره لاصحاب الاقلام بالجمع والتاليف في مختلف العلوم .

مهارته الادارية في عهد خلافته : حقاً كان المنصور الذهبي من نوادر الدهر الذين احتفظوا بتلك الشخصية التاريخية الممتازة في حياتها بما يضن به الدهر على كثير من العظماء لانه ان كان سياسياً ماهراً وقائداً عظيماً وشجاعاً قوياً فقد كان كذلك رجلاً إدارياً عظيماً زودته الايام بمخبآتها وحنكته الظروف بتجاريبها فابرزت من ذلك الاداري المرن الذي بات شخصية تاريخية وستظل كذلك موضوعاً لشباة الاقلام مر الدهور .

ادار حركة وادي المخازن بهمة ونشاط واستطاع بمهارته النادرة أن يكون العامل القوي في انتصار الجيش المغربي على جيش الصليب البرتقالي بعد أن استاثرت يد المنون باخيه أبي مروان صاحب العرش اذ ذاك قبل أن يقدر لهم النصر في ساعة رهيبة تختل من جلالها دقات القلوب.

كتب له النصر وانتقلت له الامارة في حين البشرى واعترفت الجماعة له بالخلافة الشرعية في هدو وسكون بدون أن يحصل اضطراب في اطراف المملكة وقد وردت عليه البيعة من العواصم المغربية فتم له الامر .

وكان أول ما بدأ به أعماله الادارية في خلافته تهدئة الجيش من روعةلولا حكمة المنصور لأدت به الى الانحلال في وقت يستدعي الهدوّ والسكون حيث أن الجيش طلب من المنصور بعد امارته أن يمنحه مرتباته العسكرية ليتسنى له التمادي في مباشرة اعماله ومتابعة خططه فباغته المنصور بطلب خمس الغنيمة ليتسنى له ترتيب وظائفهم المطلوبة من خمس الغنم وكانت مفاجأته غريبة حيث يتعذر على الجند ارجاع المغانم وقد مضى توزيعها في غير روية ولا امهال لذلك صعب عليهم الامر فتلطفوا في التنازل عن مطالبهم على أن لا يعاد قسم الغنائم فلبى طلبهم في هيبة وجلال ، وبعد انتصاره بعث رسل البشرى الى سائر الممالك الاسلامية والى دار الخلافة العثمانية باخضاعه الجيوش البرتقالية التي فلت صفوفها وتولت الادبار في زحفها رغماً عن قوتها واحتشاد جموعها من الدولة الايطالية والاسبانية والجرمانية تحت القيادة البرتقالية كتبت لها الهزيمة تحت راية المنصور بعد انسدال الستار عن حياة ابي مروان فعظمت بذلك مكانته لدى الامم الاسلامية ورفعت رايته البيضاء التي ترفرف على الرءوس في تلك الساعة التي كسي فيها المنصور بدثار الخلافة المغربية وحلي بشعار الملك .

قفل المنصور بعد انتصاره راجعاً الى العاصمة الادريسية ثم توجه الى عاصمة ملكه مراكش الحمراء فاستقبله اهلها بما تستحقه عظمته واصبحت جموع الوافدين تنسل للعاصمة من كل حدب وصوب لاداء مراسم التحية للخليفة المنصور.

بعد كل ذلك اخذ المنصور في ترتيب الجند ترتيباً ادارياً غريباً اتبع فيه الطريقة العثمانية ومزجها بما عهد عند الدولة العربية واضاف الى ذلك نظم الدولتين المرابطية والموحدية فاستخرج من مجموع تلك النظم طريقة مثلى سنها للاجناد ، قسم الجند الى فصائل وجعل على كل فصيلة قائداً محنكاً ترجع اليه رياستها وترتبط تلك الرياسة بالقائد الاعلى للجيوش وهو المنصور .

«يتبع»

محمد بن عثمان